تلقي جاك دريدا في الفلسفة الأمريكية

د.جميلة حنيفي
قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2

تاريخ الإرسال: 2018-10-20- **تاريخ القبول:** 2018-12-12

ملخص

يتناول هذا المقال تحول جاك دريدا Jacques Derrida 1930-2004 إلى أقوى الفلاسفة الفرنسيين ما بعد البنيويين تأثيرا في أمريكا"(Norris, 2004) وهو الذي "أمضى ما يقارب الثلاثين عاما متنقلا من باريس وجامعات أمريكية خاصة وأهمها ييل Yale وإرفين Irwin، وكان من الجدير السؤال عن سر نجاح نظرية التفكيك Deconstruction في الوسط الأنجلوساكسوني في الوقت الذي لم تلق شأنها كحال الفلسفة ما بعد البنيوية Post structuralism ترحابا ولا اهتماما في الجامعات الفرنسية. وللإجابة عن هذا السؤال لا بد أولا من الأخذ بعين الاعتبار السياق الفكري الذي جعل التزاوج بين الفلسفة الفرنسية والفلسفة الأمريكية ممكنا رغم كونهما مختلفتين أشد الاختلاف، فالأولى سمتها المفارقة بين عقلانية صارمة مستمدة من روني ديكارت ولاعقلانية متمردة مستمدة مما عرفوا بفلاسفة الاختلاف. والثانية سمتها البراغماتية القائمة على الخبرة والتجريب وفكرة التفاعل الإيجابي والنافع مع المحيط سواء الطبيعي أو الاجتماعي. فهل وجدت التفكيكية عوامل خصوبتها وإثمارها في الفلسفة الأمريكية أي التحليلية وقرينتها البراغماتية الجديدة أم في الأدب الأمريكي؟ إذ الملاحظ في البدء أن دريدا أثار اهتمام الأدباء الأمريكيين أكثر من الفلاسفة. وإذا كان الأمر كذلك فما الذي جلب اهتمام الأدباء صوب نظرية التفكيك؟

الكلمات الدالة: ما بعد البنيوية؛ التفكيك؛ البنيوية؛ النقد الجديد؛ الإرجاء؛ الاختلاف؛ التكرار.

Abstract

This paper deals with the reception of Jacques Derrida (1930-2004) in the American philosophical scene. He was one of the most prominent post-structuralist French philosophers, who spent nearly thirty years traveling from Paris to American universities, especially Yale and Irwin. For that, we deem that it is worth searching the reasons of the success of Deconstruction theory in the Anglo-Saxon universities? And what makes this question particularly important, is

المنارة للاستشارات

that poststructuralist philosophy on the whole was severely criticized in French universities, and sometimes neglected. We will examine the intellectual context that made the pairing between French philosophy and American philosophy possible, in spite of the differences existing between them. Then we will identify which fertility' factors contributed in the flourishing of Deconstruction on the American soil? Were they related to American philosophy or more especially to American literature?

Keywords: post-structuralism; deconstruction; structuralism; new criticism; difference; difference; iterability.

Résumé

Cet article traite de la réception de Jacques Derrida (1930-2004) sur la scène philosophique américaine. C'est l'un des philosophes Français poststructuralistes les plus renommés, il a passé près de trente ans à voyager entre Paris et les universités américaines, notamment Yale et Irwin. Pour cela, nous estimons qu'il est intéressant de rechercher la raison du succès de la théorie de la déconstruction dans les universités Anglo-Saxonnes? Et ce qui rend cette question particulièrement importante, c'est que la philosophie poststructuraliste dans son ensemble a été sévèrement critiquée dans les universités françaises et parfois négligée. Nous examinerons le contexte intellectuel qui a rendu possible l'appariement de la philosophie française et de la philosophie américaine, malgré les différences qui les séparent. Nous détecterons ensuite les facteurs de fécondation intellectuelle qui ont contribué à l'essor de la déconstruction sur le sol américain. Sont-ils liés à la philosophie américaine ou plus particulièrement à la littérature américaine **?**

Mots-Clés: poststructuralisme; déconstruction; structuralisme; nouvelle critique; différance; différence; itérabilité.

مقدمة

إلى حين ستينيات القرن الماضي سادت في الجامعات الأمريكية وفي أقسام الأدب تحديدا ما يسمى بنظرية النقد الجديد New Criticism وقبل التعرف كيف تم الانتقال من النقد الجديد إلى التفكيك ينبغي للضرورة المنهجية إلقاء نظرة وجيزة على هذه النظرية التي بدأت معالم اندثارها قبيل الستينات.

المنارة للاستشارات

النقد الجديد نظرية أنجلوسكسونية في النقد الأدبي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى -وهي متأثرة بالشكلانية الروسية- تدافع عن فكرة أن العمل الفني بنية مستقلة بذاتها، ما يعني أن قراءته تقوم على استبعاد كل المقاصد الذاتية للكاتب وكل المؤثرات الثقافية للمجتمع والسياق التاريخي. فالنص إذن وحدة عضوية مستقلة، وأيما عمل أدبي سواء كان لوحة زيتية أو قصيدة شعرية أو رواية أو غيرها فهو مكتف بذاته ولا يحتاج في تأويله إلا إلى التركيز على ما يسمى الاشتغالات الداخلية في العمل الفني ذاته. وهذا يتنافى تماما مع ما ذهبت إليه الماركسية على سبيل المثال من أن الظروف الموضوعية الاجتماعية والتاريخية وخاصة الاقتصادية هي المحدد الحاسم في تشكيل الوعي. إن انتشار نظرية النقد الجديد جعل الأرضية مهيأة لتقبل التفكيك، الذي بواسطته سوف تتواصل بصفة جذرية عملية التخلي عن المضمون وتقويضه بالكشف عما يلبسه من تناقضاته باطنية. فما التفكيك إذن؟

1- تعريف التفكيك

لقد أثار مفهوم التفكيك الكثير من الالتباس والتعقيد لدى الدارسين لأن دريدا يلح على أن التفكيك ليس تحليلا، وهو مختلف عن النقد. كما أنه ليس منهجا لقراءة النصوص وتأويلها بل يتجاوز ذلك كله، فالتفكيك عبارة عن إستراتيجية كاملة تطال كل البنيات المعرفية سواء تعلق الأمر بنص، أو قصيدة شعرية، أو لوحة، أو مؤسسة معينة، أو غيرها من البنيات بما فيها فكرة النقد ذاتها، وتاريخ مفهوم النقد وغيره من المفاهيم الأخرى. كما تطال في نهاية المطاف مفهوم التفكيك في حد ذاته. وفي هذا المقام يقول دريدا: « يجب ألا نفهم هذه العبارة "التفكيك" بالمعنى الذي يفيد الانحلال أو الهدم، بل تحليل البنى المترسبة التي تشكل العنصر الخطابي أو الخطابية الفلسفية التي نفكر داخلها» (دريدا، 2006، ص143).

وفي نص آخر بين دريدا أن التفكيك "ليس تحليلا، لأن تفكيك عناصر بنية ما على الخصوص، لا يعني الرجوع إلى العنصر البسيط ولا إلى أصل غير قابل للحل(...)، وهو ليس نقدا، لا بالمعنى العام ولا بالمعنى الكانتي، فهيئة القرار أو الاختيار أو الحكم أو التحديد، تشكل إحدى التيمات أو الموضوعات الأساسية للتفكيك، شأنها في ذلك شأن

المنارة للاستشارات

جهاز النقد المتعالي نفسه(...)، وهو ليس منهجا، ولا يمكن تحويله إلى منهج، خصوصا إذا ما ركزنا في هذه اللفظة على الدلالة الإجرائية أو التقنية." (Derrida, 1983, p.3)

إذن التفكيك فعل قراءة النصوص بواسطة تقنيات معينة، كأن ينظر التفكيكي إلى السبب في تفضيل استعمال لفظ على آخر في نص معين، هل هو لفظ ذو سلطة وقوة ونفوذ وامتياز؟ هل مرده إلى محض تقليد تاريخي أو موروث اجتماعي أو ممارسة اجتماعية أو ماذا. قد يعود تفضيل لفظة على أخرى إلى كونها الأكثر عمومية أو معيارية أو ربما خاصة استثنائية أو اشتقاقية أو ربما أكثر صحة، أو أكثر قيمة، أو أكثر أهمية أكثر وكونية من غيرها. (Balkin,1996)

ومن خلال التفكيك يعبر دريدا عن احتجاجه وثورته على الإرث الميتافيزيقي الغربي والمؤسسات المجسدة له أو ما يسميه "ميتافيزيقا الحضور"، واضعا إياها موضع تساؤل وشك. ويوجه دريدا انتباهنا إلى ما هو غير مفكر فيه أو مقصي، غير ذي قيمة، غير معلن عنه، مسكوت، مهمش، مختزل، مستور وذلك بغية خلخلة ميتافيزيقا الحضور الجاثمة على الفكر وزعزعة استقرارها وتفجيرها من الداخل وتقويضها.

لقد سار دريدا على نفس خطى نيتشه ومارتن هيدجر في "تبرؤهما الجذري من النزعة الأفلاطونية ،أي من عتاد الفروق الفلسفية التي ورثها الغرب عن أفلاطون وهيمنت على الفكر الأوروبي بكامله" (رورتي،2006، ص277) أي ما يسمى التعارضات الثنائية التقليدية؛ الموضوعي والذاتي، الحقيقي والزائف، الأصل والفرع، الواحد والمتعدد، الجوهر والعرض، الأصل والمشتق، النفس والجسد، المحسوس والمعقول، الكتابة والكلام، الذكري والأنثوي، الله والإنسان، الخير والشر، الروح والنفس، الدال والمدلول، المعقول والمحسوس، الجوهر والعرض، الجميل والقبيح، الموت والحياة وغيرها.

كل هذا التراتب التفاضلي الذي طغى على الإرث الغربي من أفلاطون إلى هوسرل يدعو دريدا إلى هدمه، فاستمراره ليس سوى دليل على كون عصرنا هو عصر "تضخم اللغة". وسعيا إلى تقويض هذا التضخم يرفض دريدا الخضوع إلى هيمنة المعنى الواحد على النص لهذا لا يستمد التفكيك قيمته إلا من خلال اندراجه في سياق معين. وما دام توجد سياقات مختلفة وعديدة فإن المعاني تتوالد باستمرار وهي تخضع لنظام الاختلاف. ويشير الاختلاف إلى فعلين: الاختلاف différence بمعنى عدم تشابه العلامة

المنارة للاستشارات

مع علامة أخرى والاختلاف différance بمعنى الإرجاء والتأجيل. هذا يعني خضوع الكلمة للسياق حيث " يحمل ما هو موجود أثر ما هو غير موجود" فلا يمكن للتفكيك أن يصل إلى أية حقيقة نهائية.

ويذهب رورتي إلى أن ما يسميه دريدا ميتافيزيقا الحضور أو نزعة مركزية اللوجوس/الكلمة أو النزعة القضيبية المتمركزة لوجوسيا هو عين ما يسميه هيدجر النزعة الأفلاطونية أو الميتافيزيقا أو أنطولوجيا اللاهوت ويؤكد بأن دريدا "يعيد ادعاء ما سبق أن ادعاه هيدجر من أن هذه الميتافيزيقا منتشرة في الثقافة الغربية انتشارا واسعا. فكلاهما يرى القوة التي تؤثر بها التعارضات الثنائية التقليدية في كل مجالات الحياة والفكر فتلوثها، بما فيها الأدب ونقد الأدب. كما يتفق دريدا مع هيدجر اتفاقا تاما حول مهمة المفكر من حيث الاضطلاع بعبء التحرر من هذه التعارضات، بل ومن أشكال الحياة الفكرية والثقافية التي شيدتها هذه التعارضات" (رورتي،2006، ص278).

لكن دريدا يرى أن تاريخ التلوث الميتافيزيقي امتد حتى إلى كتابات هيدجر نفسه فهو أيضا فشل في الانعتاق من ربقة ميتافيزيقا الحضور، ويقول:" ما قد حاولت عمله لم يكن ممكنا لولا الانفتاح على تساؤلات هيدجر...لكن على الرغم من هذا الشعور بالدَّين لفكر هيدجر، أو على الأصح بسبب من هذا الدين، أحاول أن أعين في نص هيدجر...العلامات التي تنتسب إلى الميتافيزيقا أو إلى ما قد أطلق عليه بنفسه أنطولوجيا اللاهوت" (رورتي،2006،ص279) والعلامة الأساسية على الطابع الميتافيزيقي لفكر هيدجر تتمثل في فكرة الكينونة حسب دريدا.

تهدف ممارسة التفكيك إلى أن تبين أن النص ليس تراكيب لغوية ثابتة بين الدال والمدلول، وليس سجين معنى واحد كما ادعت البنيوية Structuralism التي تذهب إلى أن تفكير الإنسان تحدده تركيبات وبنيات لغوية مستقرة ثابتة بين الدال والمدلول، ما جعلها تقلل إلى حد كبير من استقلالية الذات في تحديد الدلالات الثقافية إن لم تكن تلغيها، أي ذاتا منصهرة في القوى المشكلة للثقافة. وتظهر مهمة التفكيك تحديدا في زعزعة استقرار هذه البنيات والكشف عما تحمله من إمكانات دلالية هائلة ومضامين عدة مختلفة ومتعارضة تم إقصاؤها أو إهمالها. ما يستدعي البحث عن أسباب هذا الإقصاء أو الإهمال ومحاولة فهمها.

المنارة للاستشارات

ويمنح التفكيك السياقات الاجتماعية والسياسية والدينية والتاريخية واللسانية أهمية محورية فالمعاني تتغير لأن السياقات تتطور وتتغير وهي دائمة مفتوحة. هذا ما يسمى التكرارية Iterability وهو مفهوم تفكيكي معناه قدرة العلامات أو النصوص على أن تتكرر في مواضع جديدة وسياقات جديدة. فكلما تغير السياق كلما تولدت معاني جديدة مختلفة ومتباينة. ما يعني أن المعنى ديناميكي متحرك زئبقي وغير مستقر. إذن ما سبق يفسر لنا بوضوح دواعي إدانة دريدا للبنيوية وخاصة اللسانيات الحديثة لدي سوسير De Saussure فهي ليست معفاة من محاكاة التقليد الميتافيزيقي الذي يهمل الكتابة لصالح اللغة وذلك رغم ادعائها الاستناد إلى أسس علمية. والدليل على ذلك لجوءها إلى القطبية الثنائية ما جعلها نظاما مغلقا من الرموز والعلامات تحيل إلى مدلولات معينة والرباط بينها محض اعتباطي.

2-تعرّف الأمريكان على التفكيك

ومادام الغرض من هذه الورقة هو اكتشاف دريدا في أمريكا فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل حتما ارتبط تعرّف الأمريكيين على التفكيك باكتشاف دريدا أم أن هناك مؤشرات تدل على كونهم كانوا يعرفون هذه المقاربة الفلسفية إن صح التعبير قبل ذلك بكثير ؟.

تخبرنا الناقدة الأدبية الأمريكية باربرا فولي Barbara Foley أن الانتقال من النقد الجديد إلى التفكيك لم يكن اعتباطيا، ذلك لأن هناك في الإرث الأدبي الأمريكي إيحاءات إلى التفكيك بوصفه منهجا لفهم النص وتأويله. وهي تنفي أن يرتبط التفكيك كتقليد فلسفي بالفلسفة الأوروبية حيث عادة ما يربط الدارسون التفكيك بأسماء تمثل سلطة في الفلسفة بشكل عام مثل هيدجر ونيتشه ثم دريدا، معتقدين أنه إرث الفلسفة القارية البحت، وتقول: "لا نرى الاستقبال الحار الواسع الذي حظي به التفكيك في ييل كعلامة على وجود علاقة وشيجة بين منهجيتها النقدية والمقاربة النقدية الجديدة التي اشتهرت بها ييل، لكن أساسا كإشارة على أن زملاءنا في ييل لديهم تقبل لكل التجارب ربما الأكثر تقدما، ونميل إلى الاعتقاد أيضا بأنها التجارب الأكثر حيرة في التنظير الأدبي". (Foley, 1994, p.44)

المنارة للاستشارات

وتواصل الباحثة الدفاع عن رأيها مبينة أنها "لا تنكر جهود هارتمان ودي مان ولكن في الآن ذاته علينا أن نكون واعين بأن ييل أنتجت رائدها المحلي في التفكيك تحديدا، تشارلز فيدلسن Charles Feidelson الذي كانت نزعته الرمزية في الأدب الأمريكي(1953) ذات قراءات تفكيكية اعترف بها على أنها ذات تأثير كبير بالنظر إلى عدد الانتقادات" (Foley, 1994,p. 45) التي ولدتها.

هذا وحسب الفيلسوف تشارلز رورتي لا يمكن الحديث عن التفكيكية في الولايات المتحدة من دون الحديث عن دور الناقد الأدبي بول دي مان (1919-1983) Paul De Man في الترويج للنزعة التفكيكية، فهو يعد المنبع الثالث للنزعة التفكيكية بعد دريدا وفوكو (رورتي، 2006). ولا شك أن " توظيف دي مان لدريدا قد كان حدثا حاسما في تطوير النزعة التفكيكية وانتشارها" (رورتي،2006، ص 282).

ولعل عدم معرفة بول دي مان تعود إلى معادته للسامية في سنوات شبابه حيث وجدت كتابات بعد وفاته تدل على تعاطفه بل وتعاونه مع النظام النازي. ففي 1941 نشرت صحيفة المساء "The Evening" البلجيكية سلسلة من المقالات المعادية لليهود من بينها مقال لدي مان بعنوان: اليهود في الأدب اليوم The Jews in Present- Day Literature وذلك قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة حيث درس بهارفارد وكتب مجموعة من المؤلفات في مجال النقد الأدبي وفلسفة الأدب عموما. وكانت تلك الواقعة التي حدثت بعد وفاة دي مان بمثابة فضيحة كادت أن تلطخ بسمعة التفكيكية كما ألمح إلى ذلك رورتي. (رورتي، 2006)

فقد ولدت إشكالية معيارية التفكيك وكيفية تعامل النظرية التفكيكية مع المسائل السياسية والأخلاقية خاصة نظرا إلى افتقارها إلي أي سند يقيني. ولكن دريدا ما يفتأ يردد بأن التفكيك هو العدالة -والمقام لا يتسع هنا للتطرق إلى معيارية التفكيكية رغم أهمية ذلك في المستوى القيمي- .

ويبدو أن تأثير دي مان كان قويا جدا وعميقا فقد قرأ لكبار الفلاسفة خاصة نيتشه وهوسرل وهيدجر كما يطلعنا على ذلك رورتي حيث يخبرنا قائلا إن "طلبته صاروا قراء للفلسفة (على غير عادة طلاب الأدب الأمريكان في تلك الفترة)، وعندما حان الوقت قاموا باستملاك أطروحات دريدا وفوكو على الفور، وكان مما يسر عملية الاستملاك

المنارة للاستشارات

هذه زيارات دريدا المنتظمة لجامعة ييل في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينيات. وسرعان ما شكل طلبة دي مان قلب الحركة التفكيكية. ويدين النقد الأدبي التفكيكي بالكثير من نبرته المغايرة وتوكيداته الخاصة لنموذج دي مان".(رورتي، 2006، ص274)

هذا يعني أن استثمار نقاد الأدب للتفكيك هو ما صنع شهرة دريدا ومنحه تلك المكانة المميزة. وهذا نفسه ما يؤكده رورتي حيث يقول: "لم تكن التفكيكية الشعار الذي اختاره دريدا لفكره مثلما لم تكن الوجودية الشعار الذي أطلقه هيدجر على تعاليمه التي بثها في كتاب الكينونة والزمان، غير أنه لما كان دريدا قد نال شهرة (في البلاد الناطقة بالإنجليزية) وهي الشهرة التي لم تجئ عن طريق أقرانه من الفلاسفة بل جاءت عن طريق نقاد الأدب (الذين كانوا يجدون وسائل جديدة لقراءة النصوص بدلا من السعي وراء فهم التاريخ الفكري فهما جديدا) –فقد صار هذا الشعار (في هذه البلدان) لصيقا بمدرسة فوجئ دريدا بأنه صار رائدا لها مما أصابه بالذهول".(رورتي، 2006، ص282)

ويبدو أن دي مان –كما يطلعنا على ذلك رورتي- كان قد اقترح طريقة في قراءة النصوص الأدبية ناقدا النقاد الجدد في استبعادهم للتاريخ وللفلسفة في فهم النصوص وتأويلها. وكذلك في جهلهم بالفلسفة الأوروبية "فقد عبر عن أسفه لتفشي الجهل بهيدجر في أمريكا، إضافة إلى افتقار الأمريكيين بوجه عام إلى أية خلفية تاريخية فلسفية يقرؤون بموجبها النصوص الأدبية". (رورتي، 2006، ص282) . ويبدو أن ذلك راجع إلى تأثير الفلسفة التحليلية التي أعرض أصحابها "وهو إعراض متغطرس" عن قراءة هيجل أو نيتشه او هيدجر. وقد أدى هذا العمى إلى استحالة إدراك ما يطلق عليه دي مان "البنية القصدية في الشكل الأدبي". وما يؤكد ذلك هو ما لقيه دريدا في الحقل الفلسفي المتخصص من نقد شديد وعنيف سواء من أقرانه القارين على الأخص الفيلسوف جاك بوفرس في فرنسا ويورغن هابرماس في ألمانيا أو التحليليين الإنجليز والأمريكان.(رورتي،2006)

3-نقد هابرماس لدريدا

يتضمن مشروع دريدا من منظور هابرماس مفارقة، فهو من جهة يقدم مشروعا لتفكيك الميتافيزيقا، ومن جهة ثانية فإن الغراماتولوجيا التي تنشد نقد الميتافيزيقا إنما تتغذى من أصول دينية يهودية. فقد لاحظ أن دريدا يربط الوعي الذي كونته الحداثة

المنارة للاستشارات

عن نفسها منذ مطلع القرن التاسع عشر على الأقل بفقدان اليقين اللاهوتي المتأتي من الكتابة الإلهية الضائعة وتحديدا من الإله اليهودي الضائع. وبذلك تتحدد الحداثة لديه بالبحث عن آثار هذه الكتابة التي لا تعد بالعثور على كل ذي معنى منسجم ومتناسق.

ويستدل على ذلك بقول دريدا التالي: «إن هذا اليقين الضائع، هذا الغياب للكتابة الإلهية وهو في البدء غياب للإله اليهودي الذي بهذه المناسبة لا يعرف فحسب وبطريقة غامضة شيئا مثل الحداثة، فهو باعتباره غيابا ومطاردة للرمز الإلهي، يتحكم في كل الاستيتيقا والنقد الحديثين».(Derrida, 1967, p.21)

ويستغرب هابرماس هذا الموقف المفارق من دريدا الذي من المفترض أنه يرفض أي تفكير تيولوجي خاصة أنه أكد في بداية مقاله حول الاختلاف la différance عدم نيته دراسة اللاهوت. أضف إلى هذا فهو يدعي أنه هيدجري ومهمته هي مواصلة مشروع تهديم الانطولوجيا التيولوجية التي بقيت مهيمنة على العقل الغربي زمنا طويلا.

هذا عن الجانب الأول من قراءة هابرماس النقدية للمقاربة التفكيكية. أما عن الجانب الثاني فيركز على فكرة التشابه بين الفلسفة والأدب، حيث يرى أنها تسعى إلى إلغاء الفروق الموجودة بين المجالين، فدريدا يستند إلى فكرة نص شامل حيث تتشابك كل النصوص ببعضها بعضا بواسطة وسيط الكتابة، ويجعل هذا التشابك كل جنس فلسفي أو علمي يفقد استقلاليته لصالح سياق يشمل كل شيء، ولصالح سيرورة توالد نصي يتعذر التحكم فيها، فالمنطق بوصفه نظام قواعد يصبح في هذه الحالة ثانويا مقارنة مع البلاغة التي تكون لها الأولوية لأنها تتناول الخصائص العامة للنصوص. وهذه ليست سوى طريقة تعسفية للابتعاد عن النص الفلسفي من أجل تقديمه وكأنه نص أدبي، فدريدا يستعمل البلاغة لنقد مضامين النصوص، التي هي في الأصل متجلية، وبهذه الطريقة يرغمها على مناقضة نفسها بنفسها وتقديم اعترافات لا تتضمنها، ومن ثم منح الأولوية للمنطوق على حساب المكتوب.

ولعل المأخذ الهام والأساس الذي يأخذه هابرماس على دريدا يتمثل في تحديده للغة بالاستعمال الشعري والجمالي وعدم تفطنه إلى أهمية اللغة بما هي وسيط تواصلي،

المنارة للاستشارات

حيث يعيش الأفراد ويتفاهمون فيما بينهم حول أمر معين، سواء أكان ذلك في العالم الموضوعي أم الاجتماعي أم الذاتي. ما جعله يختزل المسارات المتعددة التي تنتجها اللغة مثل اكتساب العلم، تناقل الثقافة، تشكيل الهوية، التنشئة، والإدماج الاجتماعي. كل هذا أخضعه دريدا للإنتاج النصي المحكوم بالتنوع الشعري المبدع الذي تقدمه الكتابة الأصلية، وعمم بطريقة مفرطة الوظيفة الشعرية للغة.

4-نقد الفلاسفة التحليليين لدريدا

أما عن الفلاسفة التحليليين الذين كما بين رورتي ورثوا تراث الوضعيين المناطقة الذي بموجبه تعد القضايا الأخلاقية واللاهوتية والميتافيزيقية فارغة من المعنى لأنها ببساطة ليست تحليلية وليست تركيبية ما يجعلها غير قابلة للتحقق. لقد رأى هؤلاء "في عمل دريدا ارتدادا ضارا وطائشا، ويرثى له، نحو نزعة غير عقلية"(رورتي، 2006، ص286)

إذن إذا كانت الفلسفة القارية صارمة في رفضها لنظرية التفكيك فما كان رد الفلسفة الأنجلوسكسونية؟ لاستجلاء كنه المسألة أكثر لا بد من تتبع خطوات دريدا على الأرض الأمريكية.

الخطوة الأولى تمت في 1966 في إطار ملتقى دولي عن لغة النقد وعلوم الإنسان* « The Language of Criticism and the Sciences of Man » . كان الملتقى مناسبة للقاء العديد من الفلاسفة، ليس الأمريكيين والفرنسيين فقط بل حتى الفرنسيين أنفسهم فقد التقى دريدا لأول مرة بجاك لاكان Jacques Lacan وبالناقد الأدبي البلجيكي الأمريكي بول دي مان. وكان من بين الحضور كضيوف شرف رولان بارث Roland Barthes ولاكان Lacan ولوسيان غولدمان Goldmann Lucien وتزفتان تودوروف Tzvetan Todorov وجون هيبوليت Jean Hyppolite وروني جيرار René Girard وغيرهم. وحسب ما ذكره فرانسوا كوسي في كتابه النظرية الفرنسية French Theory فإن هذا الملتقى الدولي انعقد "لسد النقص الذي عرفته آنذاك الجامعات الأمريكية في التعرف على الفلسفة البنيوية وتدريسها. فقد تمت ترجمة الفكر المتوحش La Pensée sauvage لليفي ستروس Lévi Strauss وصدور عدد خاص عن البنيوية في مجلة ييل للدراسات الفرنسية Yale French Studies في ظل لامبالاة تامة".

(Cusset, 2005, p.39)

المنارة للاستشارات

لكن بدلا من أن يقدم الملتقى البنيوية للأمريكيين فإنه شهد مخاض وريثتها ما بعد البنيوية. وحتى وإن "ظهرت الكلمة في بداية سنوات 1970 لكن كل الأمريكيين الحاضرين في جون هوبكينس قدّروا أنهم قد حضروا مباشرة ميلادها العمومي".

(Cusset, 2005, p.39). وبطبيعة الحال حدث هذا الميلاد بفضل المحاضرة التي ألقاها دريدا والتي شد بها انتباه الحضور. فقد كان بالفعل ""حدث" المؤتمر فقد خلف تأثيرا حاسما بواسطة بحثه الإشكالي الذي يستهل تحولا حاسما عن البنيوية التقليدية، ويؤسس لتوجه جذري صوب ما سمي "التفكيكية."(ديريدا، 1993، ص231)

وحمل البحث عنوان "البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية" Structure, Sign, and Play in the Discourse of the Human Sciences". ويؤكد فرانسوا كوسي ذلك بقوله إن "مداخلة دريدا التاريخية، التي قال إنه كتبها في ظرف عشرة أيام، بقيت حدث الملتقى واليوم أيضا من النصوص الأكثر مقروئية في النظرية الفرنسية". (Cusset, 2005 ,p.40)

وبطبيعة الحال اختلفت الردود فمن الحضور "من آزر دريدا وتلقى بحثه على نحو ما تتلقى البشارة. وبينهم من هاجمه ساخرا ومتهما إياه بالرجعية" (ديريدا،1993، ص 233). يا ترى ما كان محتوى هذه المحاضرة الفريدة والمتميزة والتي كانت إيذانا بتراجع عهد البنيوية وبفقدانها لمكانتها الفتية حتى في أمريكا ذاتها؟

ركزت المحاضرة على نقد ليفي ستروس Lévi Strauss والبنيوية بشكل عام لكن دريدا بدأ بمقدمة مارس فيها التفكيك على مفهوم البنية وعلاقته بالمركز. فقد ربط البنية بنقطة حضور معينة وبأصل ثابت أو ما يسميه المركز، "وإلى يومنا هذا، فإن بنية بلا أي مركز تمثل اللامتصور ذاته"(ديريدا،1993، ص234)

وتتحدد وظيفة المركز في توجيه البنية وتنظيمها ما يسوغ له التحكم في اللعب إما بفتحه أو إغلاقه أو تيسيره أو تعقيده، ولم يكن مسموحا تبديل العناصر المشكلة للبنية لأن كل بنية مغلقة على ذاتها. وظل تبديل عناصر البنية ممنوعا أو ما يسميه دريدا الانقطاع أو التمزق الذي "ربما يكون قد حدث عندما بدأ التفكير في بنائية structurality البنية، أي عندما بدأ التفكير يتكرر،...ومنذ ذلك الحين، أصبح من

المنارة للاستشارات

الضروري التفكير في القانون الذي تحكم في رغبة المركز في تأسيس البنية...ربما كان من الضروري البدء في التفكير في أنه لم يكن هناك مركز، أن المركز لا يمكن تصوره في شكل كائن موجود، وأن المركز لم يكن له محل طبيعي، لم يكن له محل ثابت بل وظيفة، ...هي اللحظة التي اجتاحت فيها اللغة مجال الإشكالية العامة"(ديريدا،1993، ص234).

هذا واتخذ المركز أسماء مختلفة مثل الأصل، العقل، اللوغوس، الروح، المطلق، الجوهر، الذات، الهوية، الوعي، الوجود، الإنسان... وأشكالا مختلفة عبر تاريخ الغرب أو تاريخ الميتافيزيقا الذي يصفه دريدا بكونه تاريخ "استعارات وكنايات مختلفة" وتاريخ حتمية الوجود بوصفه حضورا.

ورغم أن المركز يحدد معنى كل بنية لكن من المفارقة أن هذا المركز ذاته يهرب من البنائية حسب دريدا. بمعنى أنه ينفلت من التحديد البنائي ما يجعله العنصر الأكثر اغترابا في البنية فهو يصدر من خارج البنية ويحتفظ بطابعه المطلق إلى أن يحدث الانقطاع أو "الحدث" حيث يستبدل بمركز آخر بطريقة تعسفية، أي يفقد المركز مركزيته.

ويتساءل دريدا متى وكيف وقع التخلي عن المركز؟ وهنا يذكر أسماء ثلاثة فلاسفة انتقدوا الميتافيزيقا الغربية و"وصل التخلي عن المركز في خطابهم إلى أعلى درجة في تشكله"(ديريدا، 1993، ص235)، وهم نيتشه وفرويد وهيدجر لكنهم وقعوا في نوع من الدور لأن خطاباتهم التدميرية وقعت في شراك الميتافزيقا الذي اعتقدوا أنهم تحرروا منه. وبهذا الخصوص يوضح دريدا أنه "لا معنى للهجوم على الميتافيزيقا مع إغفال مفاهيم الميتافيزيقا. فليس لدينا لغة-ولا نحو ولا مفردات- بمنأى عن هذا التاريخ، لا نستطيع أن نتلفظ بقضية تدميرية واحدة، ولا ننزلق فعليا إلى الشكل والمنطق والفرضيات المضمنة الخاصة بما نسعى بالضبط إلى أن نتحداه" (ديريدا،1993، ص 235).

بعد هذه المقدمة وطد دريدا الطريق لنقد ليفي ستروس بدءا من مفهوم العلامة والتناقض الذي يلبسه. ولم يكن نقد دريدا لليفي ستروس من منظور بعض الدارسين موضوعيا إذ كان يتوجب على دريدا "الاعتراف بالأرضية والمقصد المشترك لأن كل نقطة من أنثروبولوجيا ليفي ستروس عبارة عن نقد ضمني للمنطق الغربي، لعقلانيته،

المنارة للاستشارات

لعلمويته، ومركزيته الذاتية. لكن بدلا من ذلك اتهم دريدا ليفي ستروس بترسيخ المنطق العقلاني المتمركز على الذات تحديدا، والذي كان يقصد نقده." (Petrović, 2004, p.92) . ويتضح ذلك فيما يأتي:

لاحظ دريدا على الفور أن شتروس يستند إلى فكرة التعارض بين الطبيعة/الثقافة، والتي كما اكتشف شتروس نفسه فقدت صلابتها، وعبثا محاولة الدفاع عنها. فالظواهر الطبيعية وحدها لها سمة الكونية لما تتميز به من عفوية وتلقائية، لكن يبدو أن زواج المحارم يعد أيضا كونيا لدى القبائل البدائية رغم أنه عبارة عن مجموعة من المحظورات الثقافية وضعها الإنسان لتنظيم حياته. ما يجعل الفرق بين المفهومين ينمحي. ويدعو ليفي شتروس هذا المحو الذاتي للفرق الذي حتى الآن بدا حقيقة بديهية بالفضيحة scandale. وعلى الرغم من أنه يعترف بأن التعارض بين الثقافة / الطبيعة لم يعد من الممكن الاعتماد عليه كمالك لأية قيمة للحقيقة فإنه يواصل تحليله باستخدام لفظي الطبيعة والثقافة كأداتين منهجيتين.

ويبدو أن أصل المشكلة أن ليفي ستروس كان يتعامل مع الأسطورة أما دريدا فإنه لم يميز بين ما هو أسطوري وما هو واقعي مدمجا كل شيء في سلة ميتافيزيقا الحضور. "ليس واضحا إذن لماذا كان على دريدا أن ينفق الكثير من الوقت في تفكيك كاتب قد فكك بالفعل نفسه تجاوز المنطق التقليدي والتجريبية، وانتقل إلى عالم الأسطورة أو التأويل. لكن الأسطورة، أو التأويل، ليس لديهما الوضع الابستيمولوجي نفسه بالنسبة إلى ليفي شتراوس كما بالنسبة إلى دريدا" (Petrović, 2004, p.93).

الخطوة الثانية لدريدا على الأرض الفلسفية الأمريكية رسمت في المؤتمر الدولي لمؤسسات الفلسفة باللغة الفرنسية Congrès international des Sociétés de philosophie في 1971 حيث قدم محاضرة بعنوان "التوقيع، الحدث، السياق "Signature, événement, contexte"، وحاول تفكيك نظرية أفعال الكلام speech acts لجون أوستين John Austin .

وإذ كان جون سورل john searle من بين الحاضرين فإنه آل على نفسه مهمة الرد على دريدا مدافعا عن أستاذه في مقال عنوانه تكرار/تجديد الاختلافات réponse à :

المنارة للاستشارات

Derrida Réitérer les différences صدر في 1977 في هوامش الفلسفة، وهو ما فتح باب النقاش بل والخصومة بينهما حيث رد دريدا بمقال آخر بعنوان شركة محدودة الأسهم أ ب ت* ...Limited Inc a b c 1988. وفي 1995 جاء آخر رد لسورل في كتابه بناء الواقع الاجتماعي Construction of Social Reality.

ويبدو أن النقاش بين الفيلسوفين كان عقيما لأن دريدا استعمل أسلوبا استفزازيا وهذا ما ألمح إليه الناقد الإنجليزي كريستوفر نوريس Christopher Norris في قوله "إن طيلة الفترة التي أمضاها دريدا متنقلا من باريس إلى أمريكا كان قصده الإرباك والإثارة بدلا من التوصل إلى أية أرضية مشتركة للنقاش"(Norris,2004 ,p.107). ولفهم كنه الخصومة بين هذين الفيلسوفين لا بد أولا وبصورة موجزة تقديم فحوى نظرية أفعال الكلام لجون أوستين.

انتقد جون أوستين في كتابه كيف ننجز أشياء بالكلمات How To Do Things With Words الطرح التقليدي السائد في فلسفة اللغة الذي يقصر وظيفة الحكم على وصف الواقع. وميز تمييزا واضحا بين الجمل أو المنطوقات الوصفية énoncés constatifs التي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب مثل: أشرقت الشمس. والمنطوقات الإنجازية أو performatifs énoncés حيث المتكلم يفعل دوما شيئا ما عندما يتلفظ بشيء ما، مثل: أعدكم بالحضور في الوقت، لا تكذب، قم بواجبك، فهذه الجمل لا يمكن الحكم عليها بمعياري الصدق أو الكذب بل بالنجاح أو الإخفاق. وإذا كان التلفظ بشيء هو إنجاز نمط معين من الفعل، فهو أيضا بالنسبة إلى أوستين إبداع حقيقة اجتماعية معينة

*اطلع سورل على نص دريدا بعد صدور الترجمة الإنجليزية في 1976. وقام الناقد الأدبي الأمريكي جيرالد قراف Gerald Graff بجمع نصوص الفيلسوفين في مؤلف Limited Inc وصدر في 1988 بالولايات المتحدة الأمريكية. ومما احتواه في طياته أيضا نصا لدريدا بعنوان "نحو إتيقا للنقاش" « Vers une Ethique de la Discussion » وهو يعد إجابة على مجموعة أسئلة وجهها له قراف. أما سورل فقد رفض أن يعاد طبع نصه الأصلي "تكرار/تجديد الاختلافات" فقام قراف بتلخيص ما تضمنه من أفكار أساسية. بعدها في 1990 صدرت الترجمة الفرنسية التي قامت بها إليزابث فيبر Elizabeth Weber.

المنارة للاستشارات

ضمن سياق اجتماعي معين، فالقول مثلا "أعلنكم زوجا وزوجة" في سياق حفل الزفاف هو إبداع حقيقة اجتماعية هي الزواج.

وتبعا لهذا يقيم أوستين تمييزا آخر بين ثلاثة أنماط مختلفة من استعمالات الفعل اللغوي:

-فعل القول acte locutoire: الفعل الذي يتحقق بمجرد التلفظ بجملة معينة ذات معنى معين. و"يتضمن قصدا أو التزاما من جانب المتكلم على الوفاء بفعله وتقبل كل تبعاته.

-الفعل الحاصل بالقول acte illocutoire: فعل متضمن في القول مثل الإخبار، الأمر، التحذير.

-فعل التأثير بالقول perlocutoireacte : ما يتم إنجازه من قول شيء ما مثل الإقناع، إسداء النصح، ومن خلاله يتم التأثير في مشاعر المتكلم-المستمع وفي أفكاره وأفعاله*.

من منظور دريدا ليست نظرية أوستين في أفعال الكلام إلا تتمة للتقليد الفلسفي الذي يؤثر الكلام على الكتابة. وبذلك بدأ بتحديد مفهوم جديد للتواصل communication حيث رفض أن يكون مدلوله مرتبطا بنقل معنى ما ثابت لأنه من المستحيل أن يكون المعنى ثابتا نظرا إلى تغير السياق وتنوعه. لقد أقصى أوستين في نظره كل الأفعال الأخرى التي يمكن وصفها بغير الجدية أو غير الطبيعية، أليس هذا النوع من الأفعال المفتقرة إلى اليقين تركيبات لغوية؟ ثم إن المنطوقات الإنجازية تستمد معناها من كونها تنطوي على أشكال متفق عليها ومتعارف عليه وهي دوما موجودة من قبل أن يستعملها المتكلم. "هذه الإعادة أو القوة على نقل من سياق واحد معين إلى آخر لهي دليل على أن أفعال الكلام لا يمكن حصرها في لحظة معنى متفردة وحاضرة بذاتها".(Norris, 2004 ,p.108) إنها ملبسة بما يسميه دريدا التكرارية 'iterability'وبذلك فهي بدورها تتضمن ميتافيزيقا الحضور المبثوثة في كتابات اللغويين الآخرين مثل دي سوسير وهوسرل.

*لقد تمت الاستعانة بترجمة حسن مصدق لهذه المفاهيم كما وردت في كتابه النظرية النقدية التواصلية.

المنارة للاستشارات

وبالنسبة إلى سورل فيمكن تلخيص رده على دريدا في ثلاث أفكار:

-تجاهل دريدا نظرية القواعد النحوية التوليدية لنعوم تشومسكي أي أن المتحدثين يمتلكون كفاءة لغوية فطرية يستطيعون بواسطتها أن ينتجوا ويفهموا عددا لا محدودا ومتنوعا من المنطوقات. "من هذا المنطلق فإن الطابع الاصطلاحي لنظرية أفعال الكلام هو بالضبط الوسيلة التي تجعلها مفهومة وتحافظ على قوتها بالرغم من تغيرات السياق"(Norris, 2004, p.109) .

-تعتبر"التكرارية الشرط الضروري لأشكال القصدية التي تميز أفعال الكلام وهي تجعلها سهلة أيضا"(Norris, 2004 ,p.109) .

- تؤدي الكفاءة التواصلية الدور نفسه سواء في اللغة المكتوبة أو اللغة المنطوقة.

وعموما رأى سورل، شأنه في ذلك شأن معظم الفلاسفة التحليليين، أن "مناهضة دريدا للنزعة التأسيسية لا تأتي بشيء جديد وليس فيها ما يثير الاهتمام بوجه خاص. كما يرى بأن السذاجة الفلسفية التي يتصف بها أتباع دريدا تفضي بهم إلى الظن بأن مناهضة النزعة التأسيسية تنطوي على نتائج تهز أسس النقد الأدبي أو السياسة (ريتشارد رورتي،2006) . ثم هناك سؤال طرحه معظم الفلاسفة التحليليين هو: لماذا نعتقد أن التخلي عن المثل والاجتهادات الأفلاطونية له عواقب ذات شأن على النواحي الأخرى في الثقافة؟ ما السبب الذي يجعلنا نعتقد أن العلم مكبّل-كما يصر على ذلك دريدا(متبعا هيدجر)-بقيود ميتافيزيقية أثرت في تعريفه وحركته منذ نشأته؟ لماذا لا نقول بدلا من ذلك(مع رايشنباخ وبوبر وديوي مثلا) أن العلوم الطبيعية قد بذلت جهودا طائلة حتى تتحرر من كثير من هذه القيود. وحتى تهيء السبيل نحو ثقافة ما بعد ميتافيزيقية؟" (رورتي، 2006، ص289).

ومن الواضح بالنسبة إلى نوريس " أن هذا التبادل لوجهات النظر حمل وعدا ضئيلا بالاتفاق أو بالتنازل من كلا الجانبين"(Norris, 2004, p.111). فقد وصل دريدا إلى حد إطلاق اسم " SARL" على سورل SEARLE بمعنى شركة محدودة المسؤولية ملمحا بذلك إلى أن النص يمكن "امتلاكه، مراقبته، أو "تحديده" أو الاستيلاء عليه باسم مصدر سيادي سلطوي" (Norris, 2004, p.111) . وبذلك بدلا من أن يثمر النقاش نتائج إيجابية على العكس من ذلك" أصبح خصومة قائمة على اللعب بالاستراتيجيات النصية، ولم يكن بأي معنى

المنارة للاستشارات

من المعاني لقاء بين وجهتي نظر فلسفيتين متزنتين، ولقد "واصل دريدا ممارسة نفوذ تفكيكي بطريقة داهية على كل المفاهيم وبروتوكولات البرهان التي قبلها سورل بوصفها قاعدة لنقاش "جدّي". (Norris, 2004, p.111).

خاتمة

لا يتسع المقام في هذه الورقة للتطرق إلى المناقشات التفصيلية التي دارت بين الفلاسفة التحليليين وانتقاداتهم لدريدا والتي تحدث عن بعض ملامحها الفيلسوف رورتي في مقاله "التفكيك". كما أن الإحاطة بكل حيثيات حضور دريدا وتلقيه في الفضاء الأمريكي يتطلب العودة إلى النقد الجديد؛ تطوره وأسباب تراجعه. وهو التراجع الذي يعود إلى تغيرات سياسية واجتماعية في المستوى التحتي وإلى جهود دي مان وانتقاداته اللاذعة لهذه المدرسة. ومجمل القول لا بد من ذكر أن تأثير دريدا في الأدب الأمريكي أثمر لفترة زمنية محدودة ميلاد ما عرف بمدرسة ييل Yale School التي تضم نقاد التفكيكيين الأمريكيين على رأسهم بول دي مان وهليس ميلر J.Hillis Miller، وهارولد بلوم Harold Bloom، وجيوفري هارتمان Geoffrey Hartman (1929-2016), ولقد انشق هذا الأخير عن التفكيكية. وصدر لهم مؤلف مشترك بعنوان التفكيك والنقد(1979) Deconstruction and Criticism ولقد أفل نجم هذه المدرسة بفضيحة دي مان ورحيل ميلر عنها في 1986 وأخيرا بوفاة دريدا.

المراجع

1- ريتشارد رورتي، 2006. التفكيك، موسوعة كومبريدج للنقد الأدبي من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تحرير: رامان سلدن، ترجمة: حسام نايل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

2- جاك ديريدا، شتاء 1993. "البنية، اللعب، العلامة في خطاب العلوم الإنسانية"، مجلة فصول، المجلد 11، العدد 4، ترجمة: جابر عصفور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

3- جاك دريدا، 2006. ضمن: حوارات ونصوص فوكو- دريدا- بلانشو، ترجمة محمد ميلاد، دار الحوار والنشر والتوزيع، سوريا

4- Barbara Foley, Spring 1994. "From New Criticism to Deconstruction, The example of Charles Feidelson's Symbolism and American Literature", in American Quarterly, vol.36, n:1, (Spring 1994), edited by The Johns Hopkins University Press. In: www.ncas.rutgers.edu/.../from%20new%20criticism%...

المنارة للاستشارات

5-Christopher Norris, 2004. Deconstruction Theory and Practice, Routledge London & New York.

6-François Cusset, 2005. French Theory ; Foucault, Derrida, Deleuze & Cie et les mutations de la vie intellectuelle aux Etats-Unis, La Découverte, Paris.

7-Jack. M Balkin, 1996, "Deconstruction", in: www.yale.edu/lawweb/jbalkin/articles/deconessay.pdf.

8-Jacques Derrida, 1967, l'Ecriture et le Différence, Editions du Seuil, Paris

9-Lena Petrović, 2004. Remembering and Dismembering: Derrida's Reading of Lévi-Strauss, in: facta.junis.ni.ac.rs/lal/lal2004 -08.pdf.

المنارة للاستشارات